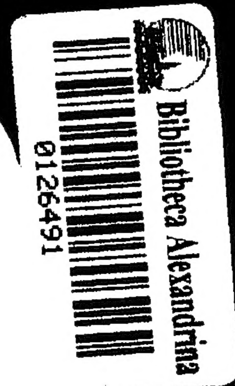
الألف كتاب
الثاني
١٣٤

رحلات فارتيما

(الحاج يونس المصري)

ترجمة وتعليق: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



رحلات ڤارتيما

(الحاج يونس المصري)

ترجمة وتعليق

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

فهرس

مقدمة الطبعة العربية

رحلة فارتيما ، أو الحاج يونس كما سمى نفسه (١٥٠٣ ـ ١٥٠٩) حول العالم ، هي الجناح البرى ـ ان صح هذا التعبير ـ لجهود البرتغاليين في اكتشاف الطرق المؤدية الى ثروات الشرق عامة ، والهند خاصة ، وجهودهم كذلك لتطويق العالم الاسلامى ، استمرارا لما كانوا يسمونه حرب الاسترداد ٠

وهذه الرحلة التى نقدم اليوم ترجمتها الكاملة للعربية زامنت تقريبا رحلات فاسكو دى جاما الذى وصل الى كلكتا ـ بعد الدوران حول افريقيا ـ سنة ١٤٩٨ ، ووصلها فى رحلة أخرى سنة ١٥٠٢ ، وبينما كان رحالتنا فارتيما يبحر من البندقية قاصدا مصر فالشام فالحجاز فاليمن فالخليج ففارس ٠٠٠ الخ كانت الأساطيل البرتغالية تقيم المحطات التجارية على السواحل الهندية وتقصف مدنها ٠

واذا كانت مهمة دى جاما قد انتهت باكتشاف الطريق البحرى للهند ، فان مهمة فارتيما كانت أكثر تعقيدا ، فقد كان مكلفا بوصف عادات الشعوب التى يمر بها فى طريقه للهند ، وفى الهند نفسها ، وكتابة تقارير عن جيوشها خاصة ما يتعلق بالمدافع ، وحصر منتجاتها الزراعية والصناعية ، خاصة ذات القيمة فى التجارة العالمية٠وباختصار ، فان مهمته كانت التجسس الشامل على كل الشعوب والجماعات التى مر بها ، خاصة الاسلامية منها ٠

وقد قدم فارتيما نفسه لأهل الحجاز واليمن وسكان الخليج العربى وبلاد فارس ، باعتباره الحاج يونس المصرى ، أو يونس المملوك المصرى ، أما فى بلاد الهند ، فقد قدم نفسه باعتباره الحاج يونس العجمى (الفارسى) وذلك بمعاونة صديق له فارسى كان قد تعرف به فى مكة المكرمة ٠

لقد قام هذا الفارسي واسمه خوجه ذو النور ، بالدور نفسه الذى قام به ابن ماجد بالنسبة لفاسكو دى جاما ، فاذا كان ابن ماجد قد دل دى جاما على الطريق الى الهند دون أن يدرى عواقب ذلك ، فان خوجه ذا النور قد قدم خدمات هائلة لرحالتنا فارتيما فهو الذى أتاح له التغلغل فى المجتمعات الاسلامية فى الهند ، وقدمه مرة على أنه مملوك حاج ، ومرة على أنه الحاج يونس المصرى ، ومرة على أنه الحاج يونس العجمى ، بل وقدمه أحيانا على أنه رجل صوفى أو درويش وجعل الناس يقبلون يديه وأحيانا ركبتيه التماسا للبركة ، وبفضل خوجه ذى النور تجول فارتيما فى الموانىء ، والمعسكرات ، ورصد الاستعدادات العسكرية ·· وقدم كل ذلك ــ كما ذكر هو فى رحلته هذه ــ لنائب الملك البرتغالى فى الهند ·

ورغم أهمية رحلة فارتيما ، فاننا لا نكاد نعرف عن حياته الا النزر اليسير ، اذ يقول المستشرق بيرسى بادجر ان معظم ما نعرفه عن فارتيما هو ما ذكره فارتيما عن نفسه ، وفى موسوعة التراجم العالمية فى القديم والحديث المطبوعة فى باريس سنة ١٨٢٧ ، نجد نصا فرنسيا نعرف منه أنه رحالة ايطالى قام برحلة فى القرن السادس عشر (هكذا دون تحديد للسنة أو السنوات) وان هذه الرحلة هامة جدا للمشتغلين بتاريخ الجغرافيا ، وللمؤرخين بشكل عام ، وأنها اضافة حقة تعرفنا بالعالم من حولنا ، ويعجب بادجر من أن المراجع التى كتبها أبناء جلدته (الايطاليون) قد أغفلته أو كادت ، فالمؤلف الايطالى زورلا Zurla لم يذكره ضمن أشهر الرحالة الايطاليين ، أما المؤرخ الايطالى فانتوزى Fantuzzi فلم يتعرض لفارتيما الا من خلال أسطر قلائل شكا فى مطلعها من قلة المعلومات عنه ، وأنهاها بالتشكك فى عودته الى ايطاليا ، وتفسير ذلك أن فارتيما لم يكن فيه من ايطاليا سوى أنها موضع مولده ، ومصدر لغته ، أما فيما عدا ذلك فالرجل كان يعمل لحساب ملك البرتغال ، الذى مول رحلته ، والذى قدم له نائبه فى الهند براءة الامتياز والفروسية ، وضمه لجيوشه المحاربة أحيانا ، لذلك فبعض المصادر تشير اليه على أنه رحالة برتغالى ، تماما مثل كولومبس الذى تعارف الناس أنه رحالة اسبانى مع أنه من أصول ايطالية ·

ومع كل هذا الغموض الذى يحيط بحياة رحالتنا فهناك اجماع على أنه ولد فى بولونيا Bologna بايطاليا ، وأنه رحل منها الى البندقية ، وقد ذكر هو فى رحلته أن والده كان طبيبا ، ويميل بأدجر أنه كان عسكريا لاهتمامه الكبير فى رحلته بوصف الأسلحة والتجمعات العسكرية ، كما نعلم من حديثه أنه كان زوجا وأبا ·

أما عن الظروف التاريخية التى تمت خلالها الرحلة ، فمعرفتها من الأمور الضرورية ، لفهم الرحلة والاستمتاع بها فى آن · لقد كان لابد لأوروبا فى أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر أن

تعيد تقويم معارفها عن العالم الاسلامى ، وأن تعيد ترتيب أوراقها لمواجهته بأساليب جديدة قوامها العلم والمعرفة • بالاضافة الى أسباب عملية ملحة تلح على الأوربيين لتعميق معرفتهم بالنظم السائدة فى العالم الاسلامى خاصة • فالتاريخ الأوروبى الحديث ـ كما يذكر لورد أكتون Acton يبدأ تحت مطارق العثمانيين المسلمين فالدور الاسلامى فى تشكيل التاريخ الأوروبى لم ينته بنهاية العصور الوسيطة وإنما استمر فاعلا مؤثرا فى التاريخ الحديث ، فقد أسهم المسلمون فى تشكيل التاريخ الأوروبى ـ فى أوروبا ذاتها ـ بقدر قريب من اسهام الأوروبيين فى تشكيل تاريخنا الحديث • فبعد سقوط غرناطة ظهرت حركة مجاهدى البحر أو ما عرف بحركة القرصنة فى البحر المتوسط ، التى أثرت على اقتصاديات الدول الايطالية واسبانيا والبرتغال ، فعلى سبيل المثال عندما وصلت أخبار مفادها أن كمالى القرصان ذائع الصيت بدأ يمارس أعماله ، ارتفعت تكاليف التأمين البحرى من ٢٪ الى ١٠٪ • لقد كان المسلمون بالنسبة للدول الأوربية المطلة على البحر المتوسط هم مجاهدى البحر أو القراصنة ، وكان هؤلاء هم سكان الشمال الأفريقى ، والأندلسيون ، فكل مسلم بالنسبة لهم هو بربرى أو هو Moor ، لذلك لاحظنا أن فارتيما يطلق هذا اللفظ على كل المسلمين دون استثناء ، فسكان مصر (مور) أى مسلمون ، وسكان الحجاز (مور) أى من المسلمين ، وكذلك سكان فارس والخليج وبعض مناطق الهند ، كلهم Moors ، وبدون معرفة هذه الخلفية التاريخية يصعب ترجمة هذا اللفظ ترجمة صحيحة وهى هنا (المسلمون) •

واذا انتقلنا لجبهة أخرى كانت فى حالة مواجهة مع أوروبا فى هذه الفترة ، وجدنا المماليك الذين يشير لهم فارتيما فى رحلته هذه على أنهم مسيحيون مرتدون ، لذلك نجد فارتيما يقسم سكان البلدان الاسلامية التى زارها الى قسمين هما : المسلمون والمماليك ، مع أن المماليك أيضا من المسلمين ، لكن ثقافة فارتيما وتعصبه جعلاه يقسم سكان مصر الى مسلمين ومماليك ، وسكان الشام الى مسلمين ومماليك ـ ويقصد بالمسلمين هنا أهل البلاد ، ويقصد بالمماليك هنا أبناء جلدته ممن تحولوا للاسلام • ويتحدث فارتيما فى رحلته عن التدريبات العسكرية للمماليك ويشيد بمهارتهم •

فاذا انتقلنا الى الجناح الشرقى لأوروبا قبل قيام فارتيما برحلته وأثناءها ، وجدنا الضغط العثمانى قد بلغ أشده ، فمنذ سقطت القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ وحتى أيام فارتيما كان المسلمون العثمانيون يتغلغلون فى عمق القارة الأوربية ، وقد وجد المسلمون واليهود المطرودون من اسبانيا فى رحاب الدولة العثمانية ملاذا ، فأوروبا كلها لم تتقبل اليهود المطرودين من اسبانيا ، بينما استقبلتهم الدولة

العثمانية ونعموا فى رحابها بالحرية الدينية ، بل ووصلوا فيها لمناصب عليا وراجت فيها تجارتهم . لقد كانت كراهية الاسبان والبرتغال موجهة أساسا لليهود ، اذ كانوا يعتبرونهم أساس كل فساد ، ومنبع كل رذيلة ، كما كان الاسبان والبرتغال يعتبرون اليهود أحد أسباب خراب الاقتصاد فى بلادهم . وقد انعكست هذه الأفكار وتلك المشاعر السائدة فى أوروبا فى ذلك الوقت على كتابات فارتيما الذى يصف اليهود بأقذر الصفات ، ويشبههم بالخنازير البرية ، ويزعم أنه رأى منهم جماعة فى الطريق الى المدينة المنورة ، وهو قول فيما يبدو غير صحيح . ويتحدث فارتيما بدون تعاطف عن يهودى كان يصنع المدافع للمسلمين فى بعض مناطق الهند ، ولم يخف تشفيه عندما قال انه ذهب - أى هذا اليهودى - كى يستحم فى بركة ماء فلقى حتفه . هل أغرقه هذا الايطالى ؟ لا أدرى . المهم هنا أن الأفكار التى سادت أوروبا فى هذه الفترة أثرت على كتابات فارتيما وهو ما يهمنا التركيز عليه لفهم النص الذى بين أيدينا .

بقيت بعض الملاحظات عن النص الكامل للرحلة الذى نقدم ترجمته الكاملة للقارىء العربى للمرة الأولى ، وهى :

١ - الصلاة على النبى ، والترضى على الصحابة ، ووصف مكة بالمكرمة ، والمدينة بالمنورة - كل ذلك من عند المترجم ولا وجود له فى النص الانجليزى الذى ترجمنا عنه ، كما لا يخفى على فطنة القارىء .

٢ - بعض الأفكار ذوات المعانى التى لا ترضى القارىء المسلم ، أو المسيحى أو المخالفة للحقيقة ، حذفت من المتن ، مع الاشارة لها كاملة فى الحواشى حتى لا نخل بالأمانة العلمية ، فنحن لم نحذف كلمة واحدة من هذه الرحلة .

٣ - كل ما بين الأقواس اضافة من المترجم لايراد عبارة بديلة ، أو فقرة شارحة بقصد توضيح المعنى ، أو رد تهمة عن دين أو خلق ، وقد أشرنا فى الحواشى لذلك فى موضعه .

٤ - جانب كبير من التعليقات الواردة فى الحواشى هى للمستشرق الكبير بيرسى بادجر ، وقد لخصتها ونسبتها اليه ، ولم أجد أى مبرر لترجمة تعليقات بادجر ترجمة كاملة لأنها طويلة جدا ، وبعضها ليس بذى قيمة للقارىء العربى ، خاصة تعليقاته على رحلة فارتيما فى مصر والشام ومكة المكرمة والمدينة المنورة واليمن والقرن الأفريقى - فهى جميعا مناطق معروفة للقارىء العربى ، أما فيما يتعلق بالرحلة الى فارس والهند وشرق أفريقيا فقد اعتمدنا اعتمادا كبيرا على تعليقات بادجر التى لخصناها كما سبق القول .

٥ ـ فيما يلى البيانات الكاملة للطبعة التى ترجمنا عنها :

The travels of Ludovico Di Varthema in Egypt, Syria, Arabia Deserta, Arabia Felix, in Persia, India and Ethiopia. Translated from the original Italian edition of 1510 with a preface by John Winter Jones, and with notes and an introduction by George Percy Badger. New York : Burt Franklin, 1863 (works issued by the Hakluyt Society).

وأخيرا فقد كان من الصعب انجاز هذا العمل دون مساعدة من آخرين ، لذلك فقد لزم التنويه بأننى استعنت بالأخ الأديب دكتور يحيى ساعاتى رئيس تحرير عالم الكتب السعودية فى توضيح بعض النقاط عن الأراضى الحجازية ، وأسرة تحرير مجلة التوباد التى تصدر فى الرياض لنشرها مقتطفات مترجمة من هذه الرحلة لفتت الانتباه لأهميتها ، ولمجلة جامعة الملك سعود المحكمة لنشرها مقالا لى عن حياة فارتيما ، ولكل من أمدنى بمرجع أو ساعد فى توضيح معلومة ـ وشكر وافر لأسرة تحرير الألف كتاب الثانى خاصة الأستاذ أحمد صليحة رئيس التحرير لافساحه مكانا لنشر هذا العمل الهام ٠

وعلى الله قصد السبيل

دكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ



إهداء

إلى السيدة اللامعة
الممتازة ، كونتيسة ألبى
ودوقة تاجيا كوزو ،
ابنيسينا فلترياكولونا
لودوفيكو (لويس) دى
فارتيما البولوجنى
يتمنى لك الصحة .

لودوفيكو دى فارتيما

مقدمة الطبعة الأصلية

ثمة اناس كثيرون كرسوا أنفسهم للبحث في هذا العالم ، بتقديم العون للبحوث والدراسات والرحلات وما له صلة وثيقة بكل هذا ، محاولين بذلك تحقيق رغباتهم · ومن ناحية ثانية ، هناك آخرون ، كان ذكاؤهم أكثر حدة ، فلم تكن الأرض لتتسع لبحوثهم وتأملاتهم ـ مثل الكلدانيين Chaldeans والفينيقيين Phoenicians فبدأوا يستعرضون المناطق العليا في السماء ويتفحصونها ويلاحظونها بدقة ، وقد حظي هؤلاء من كل من عرفت بالمديح الذي هم جديرون به ، كما حققوا ذواتهم وشعروا بالرضا عن أنفسهم · ولهذا السبب فقد قررت أن أتقصى بعض البقاع الصغيرة من كرتنا الأرضية ، شاعرا برغبة عارمة لتحقيق الغايات نفسها (أي مديح الآخـرين وتحقيق ذاتي) ، تاركا جانبا عبء دراسة السماوات لأطلس Atlas وهرقل Hercules ، فاكتافهما ملائمة لمثل هذا الحمل · ولم أجد في نفسي القدرة (وأنا أعلم أن قدراتي على الفهم متواضعة) للوصول الى هذه الغاية عن طريق الدراسة والاستنتاج ، لذا فقد قررت ، أن أرى شخصيا ، وبعيني ، وأن أحاول التأكد من مواقع الأماكن ونوعيات البشر، وأجناس الحيوان ، وأن أرى بنفسي الثمار المختلفة والأشجار العطرية التي تنبت في مصر وسوريا ، وصحراء شبه الجزيرة العربية ، وبلاد العرب السعيدة وبلاد فارس والهند وأثيوبيا ، واضعا في اعتباري أنه ليس من رأى كمن سمع وأن دليلا واحدا تقدمه عين شاهدت يفوق في قيمته عشر روايات مسموعة · وبعون من الله ، شرعت على نحو ما في تحقيق هدفي فاستقصيت البلاد المختلفة والأمم الأجنبية وتبين لي أنني سأضيع حصاد جهدي اذا ما أخفيت في نفسي ما شاهدته وعاينته وجربته ، وبدلا من هذا وجدت أنه يتعين ايصال هذه المعلومات والخبرات الى الدارسين · لذا فقد فكرت في نفسي في أن أقدم وصفا صادقا جدا لرحلتي هذه ، بقدر طاقاتي المتواضعـة ، لأني أظن أنني بهذا أقدم عمـلا أتمنى أن يكون مقبولا من قرائي · وبما أنني قد حققت السعادة والمسرة برؤية ما هو جديد من أحوال الناس وعاداتهم وتعرضت في سبيل ذلك لأخطار جسام وارهاق لا يحتمل، فان في مكنة القراء أن يحققوا القـدر نفسه من السعادة ويحصلوا على

القدر نفسه من المعارف ، بدون أن يتعرضوا لارهاق أو خطر ـ وذلك من خلال القراءة فحسب ٠

فاليك يا من أهديت اليك هذا العمل الصغير المضنى ، والتى صدرت باسمها هذا الكتاب فكان نعم الاستهلال ٠ اليك يا أكثر النساء تفردا وامتيازا لقد خطرت ببالى كملاحظة ومراقبة لكل ما هو جديد بالاهتمام ، وكمحبة لكل فضيلة ٠ ولم يكن حكمى هذا عبثا فقد انتقل اليك العلم عن طريق النور المشع المنبعث من والدك دوق أوربينو Duke of Urbino . ذلك اللورد الشهير الممتاز ، فقد كنت كما كان بالنسبة لنا شمس الفضيلة والعلم ٠

ولم أتحدث عن أخيك ، هذا اللورد البارز ، فهو رغم حداثة سنه قد برز فى الدراسات اللاتينة واليونانية ، فاقترب فى نطقهما من مستوى ديموستنيوس Demosthenes وشيشرون Cicero ٠ ولهذا فقد استخلص كل فضيلة من مثل هذه الفيوضات الواسعة المشرقة ٠ فليس أمامك الا السرور والسعادة لهذه الأعمال المشرفة ٠ فهو الذى يقدر على تثمينها بدقة ، ويرغب فى الذهاب بقدميه ، والتحليق بعقله ، ذاكرا أن أحد مناقب أوليس Olysses البليغ ، التى جلبت له المديح ، هو أنه كان قد رأى كثيرا من عادات الناس وبلدانهم ٠

لكن صاحبة النبل مشغولة بأمور زوجها اللورد العظيم (فهو مثل أرتيمزيا Artemisia الآخر ، موضع حبك واحترامك) وبأمور أسرتك المميزة بحكمها الزاهر ـ والتى تشمليها بعطفك ودعائك ، لذا فانى أقول انه يكفيك ، بالاضافة لمشاغلك الأخرى أن تغذى عقلك بقراءة هذه الرحلات التى وان كانت صادقة ، الا أنها قد تكون غير منمقة ، فأنت لست كنساء كثيرات أخريات يصخن السمع للأغانى التافهة والكلمات الفارغة ، يبعثرن الوقت بلا حساب ، وهن فى ذلك غيرك يا صاحبة النبل ، ويا ذات العقل الملائكى ، فأنت لا تسمحين بلحظة واحدة تمر دون أن تقطفى فيها بعض الثمار الطيبات ٠ فبفطنتك ولطفك ستدركين سريعا ما فى النص من قصور ، وستخلصين الى صدق الحقائق التى أوردتها ٠ واذا كان عملى هذا ـ كما أتمنى ـ قد حاز قبولك ولاقى استحسانك فسأعتبر نفسى قد نلت الاطراء الكافى والرضا لما قمت به من طول تجوال ، وما واجهته من غربة مخيفة ، تحملت فيها طوال أيام لا تحصى ـ الجوع والعطش ، والبرد

والحر ، والحرب والسجن ، واخطارا أخرى لا تحصى ، وسأستعيد الشجاعة لهذه الرحلة الأخرى التى آمل انجازهـا فى وقت قصير ، لدراسة بعض المناطق والجزر فى الشرق والجنوب والغرب ، كما اعتزمت ـ ان كان ذلك يرضى الله ـ أن أتقصى مناطق الشمال وجزرها • وأتمنى أن أقضى ما بقى من أيامى القليلة فى هذه الدنيا فى انجاز هذه الرحلات الجديدة بالثناء ـ فلست أرانى أصلح لعمل آخر سواها •

لودوفيكو دى فارتيما

السِّفرُ الثَّالثُ

بلاد العرب السعيدة

جيزان (١) وخصوبتها

عند الحديث عن مواضع بلاد العرب الصحراوية ، ومدنها ، وعادات أهلها ، بقدر ما سمحت لى الظروف برؤيتهم ، تراءى لى أنه سيكون من الأفضل أن نتعرض لبلاد العرب السعيدة أيضا ، فالحديث هنا سيكون أكثر ايجازا ، وأكثر امتاعا • فبعد مرور ستة أيام وصلنا الى مدينة جيزان وهى ميناء جميل جدا ، وقد وجدنا فيه خمسا وأربعين سفينة لبلاد مختلفة • وهذه المدينة تقع على ساحل البحر وهى تابعة لحاكم مسلم Moorish Lord ، وهى تمثل منطقة مثمرة جدا ذات منظر خلاب ، كالمناطق المسيحية (فى أوروبا) ويوجد هنا عنب وخوخ وسفرجل ورمان وثوم له رائحة نفاذة جدا ، وبصل طيب وجوز وبطيخ وورود وأزهار وخوخ (دراق) وتين ويقطين وأترج وليمون وبرتقال حامض ، ولكل هذا فهى فردوس • وسكان هذه المدينة يسيرون شبه عراة ويسيرون فى حيواتهم على طريقة المسلمين • واللحوم والغلال والشعير والذرة البيضاء ـ التى يصنع منها خبز جيد ـ كل أولئك موجود هنا وبوفرة • ولقد مكثنا هنا ثلاثة أيام للتزود بالمؤن اللازمة للرحلة •

البدو (٢)

بعد رحيلنا من مدينة جيزان ظللنا لمدة أيام خمسة فى محاذاة البر، وكان هذا البر عن يسارنا ، وعندما رأينا بعض السكان على الساحل

---

(١) يذكر بادجر فى تعليقه ما نلخصه كالتالى : تقع جيزان (يكتبها الرحالة الاوربيون بطريقتين املائيتين مختلفتين Jeezan او Gheezan) فى منطقة خصبة وليس بها الا قليل من المساكن الحجرية وانما معظم بيوتها من القش على شكل هرمى (أكواخ) وبها قلعة كبيرة ، أصبحت خربة ، وفى جزان مرنا جيد للسفن الصغيرة ، ويغطى السكان الرجال أنصافهم السفلية بقطع من القماش القطنى (الفوطة) • وقد استخلص بادجر هذه المعلومات من رحلة نيبور Niebuhr .

(٢) يعتقد فارتيما أن المقصود هنا ليس مطلق البدو (جمع بدوى ، وانما المقصود =

نزل منا أربعة عشر رجــلا لنطلب منهـم بعض المؤن مقـابل النقود • فاجابوا طلبنا بقذف الحجارة علينا من مقاليعهم Slings • وهم نوع من البشر يقال لهم البدو • لقد كان عددهم يزيد على المائة ، وكنا أربعة عشر رجلا ، واشتبكنا معهم فى قتال استغرق حوالى ساعة حتى ان أربعا وعشرين رجلا منهم ماتوا فى ساحة المعركة وشرع الآخرون فى الانسحاب ، وكانوا عراة ولم يكن لديهم أسلحة الا هذه المقاليع ، وأخذنا كل ما استطعنا من دجاج وعجول وثيران وغير ذلك مما هو صالح للأكل • وفى غضون ساعتين أو ثلاث بدأ الاضطراب والشغب يزدادان على هذا الساحل فقد كانوا أكثر من ستمائة ، وكنا مضطرين للانسحاب الى سفينتنا •

جزيرة كمران Chamran (٣) فى البحر الأحمر

وفى نفس النهار اتخذنا سبيلنا الى جزيرة يقال لها كمران ، ويبدو ان محيطهــا يبلــغ عشرة أميــال أو اثنى عشر ميــلا ، ويقطنها حــوالى مائتى أسرة ، من المسلمين • وبالجزيرة ماء عذب ولحوم ، ورأيت هنـــا أفضل أنواع الملح وبالجزيرة ميناء يطل على الساحل (المقابل) للبحــر الأحمر ، ويبعد عنه قرابة الثمانية أميال • وهذه الجزيرة تابعة للسلطان أمير المؤمنين Amanni (٤) وهو سلطان بلاد العرب السعيدة ، وقد

= سكان قرية يقال لها قرية البدوى Village El-Badawi التى تقع بين جيزان وكمران • وتوجد قرية أخرى تسمى خبط البكار Khabt el-Bekkar وصفها نيبور بأنها قرية تسكنها بعض الأسرات المبدية (الجوالة التى تعودت على سلب المسافرين) •

(٣) كتبها فارتيما شمران Chamran • وطول كمران أحد عشر ميلا ، أما عرضها فيتراوح بين ميلين واربعة اميال ، ويوجد فى هذه الجزيرة سبع قرى معظمها مكون من أكواخ يمتلكها الصيادون ، ويتوفر الماء العذب فى هذه القرى وبعض مناطق الجزيرة مخصص للزراعة ، وبها وفرة من الغنم والثيران ، وهى ميناء آمن يتردد عليه السكان العاملون فى مجال التجارة بين البحر الأحمر ، وبلاد فارس والهند (مختصر تعليق بادجر) وكمران جزيرة معروفة بين عدن وجزيرة فرسان ، قرب الساحل الشرقى •

(٤) يرى بادجر أن المقصود قد يكون أحد أئمة صنعاء ، وقد يكون المقصود هو السلطان عامر بن عبد الوهاب الذى يصفه النهروالى بانه آخر ملوك العرب فى اليمن ، ويقول فيه ما نصه : « اعلم أن سلطنة ممالك اليمن ، أعلاها وأسفلها ، وجبالها وتهائمها انتهت فى رأس القرن العاشر ، الى السلطان عامر بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر بن معوضة الأموى ، ولقبه الملك الظافر ، صلاح الدين ، وهو آخر ملوك بنى طاهر • وابتداء ملكهم فى سنة ٨٥٩ هـ ، أخذوا مملكة اليمن من بنى رسول الغسانى ، وولى السلطان عامر بعد وفاة عمه المنصور فى سنة ٨٩٤ هـ ، واستمر سلطانا مطاعا فى اقطار اليمن كلها =

مكثنا فى الجزيرة يومين · ثم اتجهنا صوب مخرج البحر الأحمر ، ومنذ مغادرة الجزيرة يمكنك الابحار بأمان ليلا ونهارا ، أما من الجزيرة حتى جـدة فلا يمكنك الابحار ليـلا ، وعنـدما وصلنا الى مخـرج mouth البحر ، ظهر أننا كما لو كنا محاصرين ، فالمضيق لا يزيد عرضه عن ميلين أو ثلاثة ، وعن يميننا أرض يبلغ ارتفاعهـا حوالى عشرة أقدام ، وعلى قدر ما يمكننا أن ندرك على بعد هذه المسافة ، فانه لايسكنها أحد ؛ وعلى يسـارنا فى هـذا المضـيق embouchure يوجـد جبل حجرى مرتفع جدا ، وفى منتصف المضيق توجد جزيرة غير مأهولة الا من القليلين تسمى باب المندب Bebmendo · فأولئك الذين يرغبون فى الذهاب الى زيلع Zeilla يبحرون الى اليمين أما الذاهبـون الى عدن فيتجهـون الى شمائلهم ، وقد سلكنا هذا الاتجاه للذهاب الى عدن ، وقد كنـا دائما نبحر بالقرب من الساحل · وقد وصلنـا لعدن بعـد مغادرتنـا جزيرة باب المندب فى يومين ونصف اليوم ، وانقص قليلا ·

مدينة عدن ، وبعض عادات التجار

عدن هى أكثر المدن التى يمكن وصفها بأنها حصينة اذ ترى دائما فى مستوى الأرض ، وهى مسـورة من جانبين ، ويحميها من جانبيهـا الآخرين جبال عريضـة ، وعلى هذه الجبال خمس قلاع (٥) ، وأرضها مستوية سهلة ، وتضم خمسة آلاف أو ستة آلاف أسرة · ويعقد بها سوق فى الساعة الثانية ليلا (٦) (صباحا) تجنبا للحرارة الشديدة نهارا · وعلى مرمى حجر من هذه المدينة (عدن) يوجـد جبل ، عليه قلعة ، وعند سفح هذا الجبل تلقى السفن بمراسيها (٧) · ومدينـة عدن فى غاية

= الى انتهاء دولته ··· وكان كثير المال والسلاح ، شافعيا سنيا قرشيا عبشميا ، الا أنه كان كثير التعرض للأوقاف ··· الخ » ·

النهروالى ، قطب الدين محمد بن أحمد : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى : تاريخ اليمن فى القرن العاشر الهجرى ··· الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٨٧ هـ ، ١٩٦٧ م · اشرف على طبعه حمد الجاسر · ص ص ١٦ ــ ١٧ ·

(٥) يذكر بادجر أن بقايا هذه القلاع لازالت موجودة ، ومعظم هذه التحصينات فيما يقول بادجر نقلا عن بعض المراجع العربية ، أنشاها عثمان الزنحيلى الذى عينه طوران شاه ابن ايوب ، أخو صلاح الدين الأيوبى · حاكما على عدن سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) وقد ظلت بعض منشآت عثمان هذا قائمة حتى استيلاء الانجليز على عدن سنة ١٨٣٩ ·

(٦) يرجح بادجر أن يكون المقصود « بعد مغرب الشمس بساعتين » ·

(٧) يرى بادجر أن المقصود بالجبل هنا جزيرة سرا seerah التى ربطت على أيامه بالبر العدنى بجسر ، ومن الأمور التى تشاع فيما يتعلق بهذه المنطقة أن قابيل عندما قتل =

الجمال وهي عاصمة (أهم المدن) بلاد العرب السعيدة فهي ملتقى السفن التي تأتي من الهند الكبرى والهند الصغرى ومن أثيوبيا ومن بلاد فارس ، وكل السفن التي تقصد مكة ترسو هنا . وبمجرد أن تصل السفينة للميناء يصعد اليها موظفو سلطان هذه المدينة ، ليعرفوا من أين أتت وما هي حمولتها ومتى تغادر وكم عدد الأشخاص على متنها ، وعندما يجمعون كل هذه البيانات ، يقومون بنزع أشرعة السفينة وساريتها ودفتها its rudder (موجهها) ومراسيها its anchors ويحملون كل ذلك معهم ، وذلك مخافة ان يغادر الأشخاص المسئولون عن السفينة الميناء ، دون دفع الرسوم للسلطان (٨) . وفي اليوم الثاني بعد وصولي عدن قبض علي وكبلت بالحديد وكان ذلك بسبب أحد رفاقي الذي قال لي : « أنت مسيحي كلب ابن كلب » . وقد سمع بعض المسلمين ذلك القول ، ونتيجة سماعه هذا القول ، تم القبض علي بعنف شديد واقتادوني الى قصر نائب السلطان Vice - Sultan وسرعان ما عقدوا اجتماعا ليقرروا ما اذا كان يجب عليهم اعدامي ، نظرا لأن السلطان لم يكن موجودا بالمدينة (عدن) . لقد قالوا انني جاسوس للمسيحيين ، الا أن كون سلطان هذه الأنحاء لم يسبق له اعدام أي شخص ، جعل هؤلاء الناس يحترمون حياتي ، فأبقوني ستين يوما وخمسة أيام مكبل القدمين بحديد يزن ثمانية عشر رطلا . وفي اليوم الثالث بعد القبض علينا ، أقبل أربعون أو ستون شخصا من المسلمين ـ كان البرتغاليون قد استولوا على سفنهم ـ يهرولون نحو القصر ، وكان هؤلاء المهرولون قد هربوا من قبضة البرتغاليين بأن وصلوا سباحة الى أقرب شاطىء ، وقد ذكر هؤلاء الناجون أننا (أي فارتيما وصحبه) ينتمون الى السفن البرتغالية المهاجمة ، وأننا (فارتيما وصحبه) قد قدمنا الى عدن كجواسيس . وبسبب هذه الفرية فقد أقبلوا نحو القصر وهم في حالة هياج فظيع وأسلحتهم في أيديهم لقتلنا ، لكن عناية الله جعلت الحراس يسرعون باغلاق الأبواب fastened the door on the inner side. لقد أدت هذه الحادثة الى تهييج أهل البلاد فحملوا السلاح ، ورأى بعضهم

= اخاه هابيل ، وخاف من أبيه آدم ، هرب من الهند واتجه الى عدن واستقر في جزيرة سرا Seerah ، ولانه كان حزينا لفراق أهله ، فقد ظهر له الشيطان وأهداه بعض الآلات الموسيقية ليسلي نفسه ، ومن الخرافات التي تشاع أيضا أن نار جهنم ستنبثق يوم الحساب من صخرة جزيرة سرا . وقد استعمر البرتغاليون جزيرة سرا في سنة ١٥١٦ ورفعوا القلعة في قمة جبلها ، ولا تزال بقايا هذه القلعة قائمة الى اليوم .

(٨) يذكر بادجر ان هذا الاجراء ليس مقتصرا على مسئولي عدن فحسب ، في هذه الفترة ، وانما هو عادة متبعة يمارسها الشيوخ المحليون على طول سواحل شبه الجزيرة العربية ، عندما يريدون احتجاز احدى السفن .

ضرورة اعدامنا ، ورأى بعضهم الآخر الابقاء علينا • وفى خاتمة المطاف تلقى نائب السلطان أمرا من السلطان بالابقاء علينا • وفى نهاية اليوم الخامس والستين من القاء القبض علينا أرسل السلطان يستدعينا ، فحمل كلانا على جمل ولا زالت القيود الحديدية فى أقدامنا • واستغرقنا فى الطريق ثمانية أيام ثم قدمنا للسلطان فى مدينة يقال لها رداع Rhada (٩) • وقد كان السلطان عند وصولنا اليه يستعرض ٨٠٫٠٠٠ مقاتل لأنه كان بصدد خوض حرب مع سلطان آخر هو سلطان صنعاء Sana التى تبعد عن Rhada مسافة تستغرق ثلاثة أيام (١٠) • ويقع جانب من صنعاء على جبل ، كما يقع جانب آخر منها فى السهل ، وهى مدينة جميلة جدا ، وعريقة جدا . كما أنها غنية وعامرة بالسكان • وعندما مثلنا أمام السلطان سألنى عن موعد قدومى ، فأجبته قائلا « أنا من بلاد الروم ياسيدى ، وقد أتيت من القاهرة ، قاصدا المدينة المنورة ومكة المكرمة ، ثم أتيت الى بلادك لأن كل الناس فى سوريا وفى مكة والمدينة يقولون انك ولى من أولياء الله الصالحين Saint وأنا ـ ياسيدى ـ عبدك ، وأنت تعرف أننى مسلم ولأنك من أولياء الله الصالحين يا سيدى ، فأنت تعرف أننى لست جاسوسا للمسيحيين (١١) ، وانما أنا مسلم حق وأننى عبدك المخلص » وعندئذ قال السلطان لى : قل لا اله الا الله ، محمد رسول الله • لكننى لم أستطع النطق بهذه الكلمات على الاطلاق ، اما لأن هذه كانت ارادة الله أو لأن الخوف عقد لسانى • ولما رأى السلطان أننى لم أستطع النطق بهذه الكلمات (الشهادتين) أمر بالقائى فى السجن مع حراسة مشددة يقوم عليها رجال من ثمانى عشرة قلعة بحيث يجلب لهذا الغرض أربعة رجال من كل قلعة من هذه القلاع • وقد بقى فى حراستى فى بداية الأمر أربعة رجال لمدة أربعة أيام ثم استبدلوا بأربعة آخرين من أربع قلاع أخرى ، وبهذه الطريقة كانوا يقومون على حراستى طوال شهور ثلاثة ، وكانوا يقدمون لى رغيف دخن millet صباحا ، ورغيفا آخر فى المساء ، مع أن ستا من هذه الأرغفة ما كان ليكفينى ليوم واحد ، واذا ما حصلت فى بعض الأحيان على ما يكفينى من الماء فان ذلك كان يبعث فى السعادة •

---

(٩) تقع الى الشمال من عدن ، وتبعد عنها حوالى ١٩٠ ميلا ، والى الجنوب من صنعاء بحوالى ستين ميلا • وبالرجوع الى كشاف البرق اليمانى فى الفتح العثمانى لقطب الدين النهروالى الذى أشرف حمد الجاسر على طبعه ، نجد أنها (رداع) تنطق بكسر الراء أيضا •

(١٠) كان الأمير ابن عبد الوهاب الملقب بالملك الظافر سلطانا (حاكما) على عدن وجنوب اليمن ، وكان كما أشرنا فى حاشية سابقة شافعيا سنيا ، وكان فى حالة نزاع مع أئمة صنعاء •

(١١) لا يعرف الغيب الا الله ـ (المترجم) •

وبعد أن أمر السلطان بايداعي السجن بيومين ، توجه السلطان الى صنعاء بجيشه الذى كان يضم ثلاثة آلاف فارس من أبناء المسيحيين ، وان كانوا سودا (سمرا) كالمسلمين (كالعرب as Moors) . لقد كانوا من أتباع القديس يوحنا prester John (١٢) الذين تم شراؤهم وهم فى أعمار تتراوح بين الثامنة والتاسعة ودربوا على حمل السلاح وقد كان هؤلاء يكونون الحرس الخاص للسلطان لأنهم كانوا أفضل من بقية الجنود ، بل ويساوون فى مهارتهم بقية الجنود البالغين ٨٠٫٠٠٠ مقاتل . فقد كان الباقون جميعا يتسمون بالهزال كما كانوا عراة الا من قطعة من الكتان يرتديها الواحد منهم كعباءة (أو كستر Like a mantle) ، وعندما يخوضون المعركه يستخدمون تروسا مستديرة مكونة من قطعتين من جلود الأبقار أو الثيران ملتصقتين معا . وفى وسط كل ترس من التروس المذكورة آنفا توجد أربعة قضبان (أعواد أو عصى) ليظل الترس مستقيما (حتى لايعوج) ، وقد طليت هذه التروس حتى تبدو لمن يراها أجمل شكلا وأفضل صنعا مما هى عليه فى الواقع . ويبلغ الترس فى حجمه قاع حمام خشبى as the bottom of a tub ، أما مقبضه فمكون من قطعة من الخشب يمكن القبض عليها باليد ، مثبتة فى الترس بمسمارين . كما يحمل المقاتل فى يده أيضا سهما (رمحا) a dart وسيفا قصيرا عريضا ، ويرتدى صدرة vest حمراء أو ذات لون آخر ، مصنوعة من القطن ، تقيه البرد وبأس أعدائه . وبشكل عام ، فانهم يحملون مقاليع sling لقذف الأحجار على أعدائهم ، وهم يرفعونها حول رؤوسهم (أى المقاليع) وتحت هذه المقاليع يضع الواحد منهم قطعة خشب طولها شبر a Span تسمى مسواكا لتنظيف أسنانه . وبشكل عام فان من هم أقل من أربعين أو خمسين سنه يلبس الواحد منهم قرنين (ضفيرتين) قد جدلتا من شعره

---

(١٢) المقصود أنهم أحباش ، أو اثيوبيون ، وقد كان البرتغاليون يسمون بلاد الحبشة ـ فى هذه الفترة ـ مملكة القديس يوحنا ، ومما يذكر أن الكشوف الجغرافية البرتغالية منذ أيام هنرى الملاح . كانت تهدف ـ من بين ما تهدف ـ الى الوصول الى مملكة القديس يوحنا (الحبشة) ظنا من البرتغاليين أنها كانت مملكة قوية يمكن التحالف معها لتطويق العالم الاسلامى ، ولكن ذلك على كل حال لم يحدث ، والواقع أن ما كتبه فارتيما فى كتابه هذا عن بلاد العرب السعيدة ، من حيث دفاعه عن الملك البرتغالى ، وتحسره على رجال القديس يوحنا ، وما الى ذلك . يؤكد ما ذهبنا اليه فى مقدمة الترجمة العربية من أن الرجل كان يعمل لحساب البرتغال او لحساب البرتغال واسبانيا معا . (مختصر عن تعليق بادجر) .

حتى يبدو صغير السن (١٣) وقد أخذ السلطان الآنف الذكر مع جيشه أيضا ، خمسة آلاف بعير محملة بالخيام والحبال المصنوعة من القطن (١٤) ٠

شغف نساء بلاد العرب السعيدة بالرجال البيض

بعد أن رأينا كيف رحل الجيش الى صنعاء ، دعونا نعد مرة أخرى الى حديث السجن ٠ لقد كان في قصر المدينة الذى ذكرته آنفا احدى أزواج السلطان الثلاث مع اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة من الوصيفات العذارى ، كن في غاية الجمال ، وكانت بشرة زوج السلطان هذه أقرب للسواد من بشرتي زوجيه الأخريين ٠ وقد كانت هذه الأميرة (زوج السلطان) في غاية الرقة معى ٠ لقد كنت أنا ورفيقي ورجل عربي مسلم a Moor في السجن معا ، وكنا ثلاثتنا قد رتبنا أمرنا على أن يتظاهر واحد منا بالجنون ، كي يساعد كل منا الآخر ، وفي نهاية الأمر ــ عندما أسهموا ــ كان من نصيببى أن أقوم أنا بهــذه المهمة ، فأخذت الأمــــر على عاتقى ، ورحت آتى من الأمور كما لو كنت مجنونا حقا ٠ وأقول لكم الصـــدق ، اننى لم أحس أبدا بالرعب والانهاك ، كما أحسست في الأيام الثـلاثة الأول ٠ والسبب في ذلك أن خمسين أو ستين من الأطفال الصغار كانوا يلاحقوننى دوما ، ويحصبوننى كمـا كنت بدورى أحصبهم ٠ وكانـوا يصرخون في اثرى قائلين : « يا مجنون ٠٠ يا مجنون » وكنت أملأ ثيابى بالحصى والأحجـــار وأتصرف كمجنون ٠ وكانت الأميرة (زوج السلطان الآنفة الذكر) تطل دوما مع وصيفاتها من النافذة ، وتظـــل هكذا عند النافذة من الصباح حتى المساء ، لترانى وتتجاذب معى أطراف الحديث ، وكان كثيرون من الرجال العابرين والتجـار يهزأون بى ويسخرون منى وينزعون قميصى حتى أغدو عاريا تماما كما ولدت ، وأكون بوضعى العارى هذا أمام الأميرة التى كانت تبدى سعادة فائقة عند رؤيتى عاريا هكذا ، وكانت تتشبث بى حتى لا أتركها وكانت تقدم لى طعاما فاخرا آكله حتى أكف عن ابداء رغبتى في البعد عنها ٠ وقد قالت لى هذه الأميرة أيضا : أعطه لهذه الحيوانات ، حتى اذا ما قتلتها فانها ستكون هى المسئولة عن

---

(١٣) لبست هذه الطريقة في لبس الضفائر المجدولة خاصــة بقبائل وسط اليمن فحسب ، اذ أن بادجر قد رأى نســـاء من بعض أسرات الرقيق يفعلن ذلك في زنجبار ، أما العرب القريبون من الساحل ٠ فعادة ما يتركون شعورهم الطويلة شعثاء مهوشة في وسط رؤوسهم ، تاركين هذه السعور لتكون خصلة كبيرة (قنزعة) عند مقدمة الرأس ٠ (عن بادجر) ٠

(١٤) لم تكن الأسلحة النارية شائعة الاستعمال في اليمن قبل سنة ٩٢١ هـ (١٥١٥ م) عندما أدخلتها الحملة المصرية ، وبدأ استخدامها في القتل في المنطقة الساحلية المواجهة لجزيرة كمران ــ (بادجر) ٠

ذلك » (١٥) وكان ثمة خروف يمسر في الساحة السلطانية (الملكية). تزن ليته أربعين رطلا وقد حاصرته وسألته (أي الخروف) ان كان مسلما أو مسيحيا وأن عليه أن يقول الصدق ان كان يهوديا ، ورحت أكرر هذه الكلمات مرارا له (للخروف) ثم قلت له : « دلل على أنك مسلم وقل : لا اله الا الله ، محمد رسول الله » الا أن الخروف وقف ازائي لا ينطق ، ولا غرو ، فهو حيوان بائس . وقد طعنته وكسرت أرجله الأربع (١٦) ٠ وكانت الأميرة تجلس هناك وهي تغرق في الضحك ، وقد أطعمتني الأميرة من لحم هذا الخروف لمدة ثلاثة أيام ، ولا أذكر أنني أكلت لحما أفضل مذاقا من لحمه ٠ وبعد ذلك بثلاثة أيام قتلت بالطريقة ذاتها حمارا كان يحمل الماء الى القصر ، لأنه رفض أن يكون مسلما (١٧) ٠ وقد قتلته بالطريقة ذاتها التي يقتل بها اليهود الحيوانات ، فقد رحت أضربه بالعصا الغليظة (النبوت) وتركته يموت ٠ لكن حدث ذات يوم بينما كنت على وشك قتل حيوان آخر بالطريقة ذاتها أن مررت بواحد من أولئك الذين أتوا بي الى السجن ، وكان الرجل أكثر جنونا مني ، فقال لي (وأنا على وشك قتل أحد الحيوانات) : (يا كافر يا كاب يا ابن الكلب) فألقيت كثيرا من الحجارة عليه الا أنه رد على ذلك بأن راح يقذفني وجميع الأطفال بالحجارة في صدري ، فآلمني كثيرا ٠ ولم أعد قادرا على متابعته لوجود القيود الحديدية في قدمي ، فاتخذت سبيلي الى سجني ، لكنني قبل أن أصل ، قذفني بحجر آخر في الجانب فأحدث لي ألما أنكى من الألم الذي سببه الحجر الأول ٠ لقد كان يمكنني بيسر أن أتحاشى الحجرين اذا ما كنت راغبا في ذلك ، لكنني آثرت أن أتلقى الضربتين ، لأجعل لجنوني طعما ٠ وعقب ذلك أسرعت فورا بدخول سجني وأوصدته بأحجار ضخام ، وظللت نهارين وليلتين دون طعام أو شراب ،

---

(١٥) النص الانجليزي :

Give it to those beasts, for if you kill them it Will be their own faults.

والمعنى غير واضح تماما . فما الذي يعطيه للحيوانات ؟ قد يكون المقصود هو الطعام . أما عن المسئولية او الخطأ ، فقد يكون خطأ الحيوانات لأنها أكلت الطعام المقدم لها وقد يكون خطأ الذين أعدوا الطعام « كان يكون مسموما مثلا » ٠ المعنى غير واضح على أية حال ــ (المترجم) ٠

(١٦) النص الانجليزي :

"... I took a stick and broke all its four legs"

« وقد تناولت قضيبا وكسرت أرجله الأربع » Legs ومن المعروف أن هذه ليست طريقة الذبح عند المسلمين ٠ والذي يقبله العقل أن هناك جملة ناقصة أو محذوفة أو ساقطة من النص ، تفيد أنه (أي فارتيما) ذبح الخروف ثم قطع أرجله ــ (المترجم) ٠

(١٧) هذا الكلام وفقا لخطة فارتيما الذي اتفق عليها مع صاحبيه في السجن ، وهي التظاهر بالجنون ٠

فخشت الاميرة والآخرون أن أكون قد لاقيت حتفى ، وكسروا الباب وأحضر لى هؤلاء الكلاب بعض قطع الرخام وقالوا لى : كل فهذا سكر ، وجلب لى آخرون عنبا مليئا بالتراب وقالوا لى : كل هذا ملح . وقد ازدردت قطع الرخام والعنب وكل شىء مرة واحدة .

وفى اليوم ذاته أحضر بعض تجار المدينة رجلين يعتبرونهما من الصالحين الاتقياء hermits لاعتزالهما فى بعض الجبال وذلك ليعرضونى عليهما ، وسألهما التجار عنى أأبدو لهما رجلا صالحا (وليا) holy ام مجنونا » فقال أحد الرجلين اننى (فارتيميا) أبدو له درويشا مبروكا ، وحكم الآخر على بالجنون . وظلا يتناقشان فى هذا الأمر أكثر من ساعة ، وحتى أتخلص منهما ، فقد خلعت ثيابى وطرحتها عليهما ، فراحا يهرولان مبتعدين ، وهما يصيحان : مجنون .. انه مجنون .. ليس درويشا .. ليس صوفيا (١٨) . وكانت الأميرة مع وصيفاتها قرب النافذة ورأين هذا المنظر فضحكن . وقالت الأميرة : « والله ، وراس النبى (١٩) .. هذا الرجل ما فى الدنيا مثله » . وفى صبيحة اليوم التالى وجدت الرجل الذى كان قد قذفنى بالحجرين فى حالة سكون ونعاس ، فحاصرته وأمسكته من شعره ووضعت ركبتى على بطنه ، ورحت ألكمه بقوة على وجهه حتى تغطى بالدم . وكانت الأميرة عند نافذتها تطالع وتبدى دشتها وتقول : « اقتل هؤلاء الدواب » . وقد اكتشف حاكم هذه البلدة فى ظروف متعددة أن رفيقى فى السجن يدبران للهرب اذ أحدثا فتحة فى السجن وأزاحا القيدين من أرجلهما ، ولأنه كان قد عرف أن الأميرة مسرورة منى جدا لذا فلم يلحق بى أى أذى حتى يكلمها بشأنى ، وعندما علمت الأميرة بالأمر كاملا ، وقر فى عقلها أننى عاقل ، فأرسلت الى وجعلتنى فى غرفة سفلية بالقصر ، لا باب لها ، وان كانت قد أبقت على القيد فى رجلى .

الأميرة تتصرف بتخرر

فى الليلة الأولى التالية لذلك ، قدمت الأميرة لزيارتى مع خمس أو ست من وصيفاتها ، وشرعت تتفحصنى ، وبدأت أظهر لها بالتدريج ما يفيد أننى لست مجنونا . وقد كانت ترى ـ كامرأة ذكية ـ أننى لست

(١٨) الكلمات بنصها هى : صوفى مافى او صوفى مفيش .

(١٩) هذا القسم شركى لا يقره المسلمون من أهل السنة والجماعة ـ (المترجم) .

مجنونا البتة ، وبدأت تفعل الشيء الكثير من أجلى ، فأمرت بسرير جيد لى بعد فرشه ، وأرسلت لى كثيرا من الطعام الممتاز ، وأعدت لى فى اليوم التالى حماما وعطورا كثيرات ، واستمرت هذه العنـــاية بى على هذا النحـــو اثنى عشر يوما ٠ وبعد ذلك راحت تنزل لى فى غرفتى كل ليلة فى الساعة الثالثة أو الرابعة ، وكانت فى كل مرة تجلب لى معها مالذ وطاب من طعام٠ وكانت تدخل الى فى مخدعى وتدعونى قائلة : « جونا تعال أنت هنا ٠٠ أجائع أنت ؟ » فأجيبها قائلا : « اى والله » وأقوم من مرقدى ، فأقف على قدمى ، وأخطو اليها وعلى قميصى ٠ لكنها قالت : « ليش هذا القميص » أى « لا أريدك هكذا بهذا القميص ٠٠ اخلعه » ٠ فأجبتها : » ياستى أنا مو مجنون الحين » أى « ياسيدتى ٠٠ اننى لست مجنونا الآن » فأجابتنى : « والله أنا عارفه ، انت أبدا ما مجنون ٠٠ انت ما فى الدنيا مثلك » ، وحتى أسعدها خلعت قميصى وألقيته أمامى بحياء ، فجعلتنى الأميرة أقف أمامها بوضعى هذا لساعتين من الزمن وراحت تتأملنى كما لو كنت أحد آلهة الجمال anymph وراحت تناشد الله سبحانه بهذه الكلمات : « يا الله أنت خلقت هذا أبيض مثـل الشمس ، وخلقتنى ســوداء ٠٠٠ يا الله ٠٠ يانبى (٢٠) ٠٠ لماذا كان زوجى أسود ؟ ولدى أنا أسود ٠٠ وهذا الرجل أبيض ٠٠ ان شاء الله هذا الرجل يكون زوجى ٠٠ وان شاء الله يكون أولادى مثل هذا « وكانت الأميرة وهى تتضرع بهذه الكلمات لا تكف عن البكاء والتنهد وابداء اللهفة بتمرير يديها على طوال الوقت ، واعدة اياى أنه بمجرد أن يعود السلطان فانها ستجعله يفك قيودى ٠ وفى الليلة التالية أتت الأميرة ومعها وصيفتان ، وجلبت لى طعـــاما طيبا آكله وقالت : « تعال هنا يا جونا (يالوديفيكو) » فأجبتها : « أنا آجى عندك أى سآتيك ٠٠ لكن ليش يا ستى أنا مقيـــد ؟! » فقالت الأميرة : « أيسعد يا لوديفيكو أن آتى وأجلس بعض الوقت معك » فقلت : لا ، لا ، فيكفينى ما أنا فيـــه من عذاب بوجـــود القيود فى رجلى ، فلولاها (أى لولا الأميرة) لقطعت رأسى » فقالت : « لا تخف فرأسى فداك ، وان كنت أنت لا تريدنى ، فســوف أدعو جازيلا Gazella أو تيجيا Tegia أو جالزيرانا Galzerana ، لتأتى واحــدة منهن » لقـــد قـــالت ذلك فقط لأنها كانت راغبة فى أن تأتى لتبقى معى بدلا من أى واحدة من النسوة الثلاث (الوصيفات) لكننى لم أكن لأقبل أبدا ، لأننى كنت أتوقع ذلك منذ غمرتنى برقتها وعطفها بالاضـــافة الى أننى وضعت فى اعتبارى أنها (أى الأميرة) لو كانت قد حققت رغبتها فانها كانت ستعطينى ذهبا وفضة وخيولا وعبيدا وكل ما أبغيه ، وقد تقدم لى عشرة عبيد سودا

(٢٠) من الترسلات الشركية غير المقبولة ـ (المترجم) ٠

يحرسونني ، الا أنني لم أكن أبدا بمستطيع الهرب فكل بلاد الغــرب السعيدة كانت تعرف بأمري ، وقد بلغ الحرس بشأني عند كل الممرات والمخارج ، واذا ما نكرت في الهرب ذات مرة فلن أفلت من الموت • ولهذا السبب لم أرضخ لطلبها كما أنني لم أكن راغبا في أن أفقد جسدي وروحي and because I did not wish to lose both my soul & body (٢١) ورحت أبكي طوال الليل وأوكلت أمري الى الله • وبعد عودة السلطان بثلاثة أيام ، أرسلت الاميرة الى تخبرني أنني اذا كنت راغبا في البقاء معها فانها ستجعلني تريا ، فأجبت : « ان الأميرة اذا عملت على فك قيودي وأنجزت وعدها الذي قطعته أمام الله ورسوله (٢٢) ، فانني سأفعل ما ترغب فيه » وسرعان ما عملت على استدعائي لحضرة السلطان الذي سألني عن الجهة التي سأقصدها اذا ما فك قيودي ، فأجبته : « يا سيدي ، أب مفيش أم مفيش ، مره مفيش ، ولد مفيش ، أخ مفيش ، أخت مفيش • الله والنبي وانت بس ، سيدي • أنت تعطيني اكل ، أنا عبدك » أي يا سيدي أنا ليس لي أب ولا أم ولا أخ ولا أخت ولا زوجة ولا ولد • وليس لي الا الله والنبي وانت ، فان أبقيتني وأعطيتني أكل ، فانا عبدك طوال حيـاتي • ورحت أبكي وأنشج • وكانت الأميرة حاضرة طوال الوقت ، فقالت للسلطان : « خف ربك ، واعمل له حسابا ، فهذا الرجل البائس أبقيتموه في القيود بلا سبب مدة طويلة » فقال السلطان : « حســنا ، اذهب أينما تشاء فأنت حر » وأمر سريعا بفك قيـودي ، فركعت أمامه وقبلت قدمه ، وقبلت يد الأميرة فأمسكت يدي بدورها وقالت : « تعال معي أيها التابع البائس فأنا أعلم أنك تكاد تموت من الجوع » وعندما صرت في غرفتها قبلتني أكثر من مائة قبلة وقدمت لي مالذ من طعام ، الا أنني لم أحس بأية رغبة في الطعام ، وذلك لأنني كنت قد رأيت الأميرة تهمس للسلطان فاستنتجت أنها تطلب منه أن يمنحني لها كعبد خاص ، لذا فقد قلت للأميرة في غرفتها : « لن أذوق طعاما الا اذا وعدتني بأنني حــر » فقلت : « اسكت (سكت) ، مجنون ! انت ما تعرف ايش يعطي الله لك » أي اسكت أنت ما تعرف ما وهبـك الله من خـير • ثم اسـتطردت : « ان كان انت مليح ، أنت أمير » أي ان كنت طيبا فستغدو أميرا • وقد عرفت الآن أي نوع من الامارة تريد اسباغها علي ، الا أنني أجبتها بأنني يجب أن أحظى قبل ذلك بقسط من الراحة وأن استرد دمائي التي هربت مني خوفا وهلعا نتيجة أفكار السوء التي راودتني أكثـر من أفكار الحب

(٢١) المعنى المقصود : حتى لا أموت واقع في الخطيئة في الوقت ذاته ـ (المترجم) •

(٢٢) المقصود أمام الله ، فهو حي لا يموت ـ (المترجم) •

التى تحدثنى الآن عنهـــا • فقالت الأميرة : « والله أنت تتكلم مليح . أنا أعطيك كل يوم بيض ودجاج وحمام وفلفل وقرفة وقرنفل وجوز الطيب nutmegs » وعندئذ استرددت روحى شـــيئا ما ، نتيجة الكلمـــات الطيبات والوعود اللائى غمرتنى بها • ولأســـتعيد عافيتى . ظللت فى القصر خمســـة عشر يوما أو اثنى عشر • وذات يوم أرسلت الأمـــيرة لى تسألنى اذا ما كنت أرغب فى الذهاب للصيد بصحبتها ، فأجبت بالايجاب وذهبت معها • وعند عودتنا من رحلة الصيد تظاهرت بأننى قد سقطت مريضا من الاعياء ، وظللت متظاهرا بهذا الامر ثمانية أيام ، بينما كانت الأميرة ترسل على الدوام أشخاصها لزيارتى والاطمئنان على وفى يوم • أرسلت لأخبر الأميرة أننى كنت قد نذرت لله ورســـوله (٢٣) أن أزور درويشا (وليا) فى عدن وهو رجل كما يقولون يأتى بالمعجزات ، ورحت أؤكد بركاته حتى أحقق غرضى الذى أسعى اليه • فأرسلت الأميرة تخبرنى أنها قد سرت لطلبى وأنها أمرت لى ببعير وبخمسة وعشرين أشرفى ذهبا seraphim • وفى اليوم التالى ركبت متوجهـــا الى عدن فوصلتهـــا بعد ثمانية أيام وسرعان ما زرت هذا الدرويش (الولى) الذى كان يتعبد فقد كان يعيش دوما عيشة الفقر والتقشف والعفة (لايقرب النســـاء) Chastity ويقضى أيامه كناســـك • والحق أقـــول لكم ان عددا كبيرا من الناس فى هذه الأنحاء يعيشـــون كدراويش ويأنســـون لحياة الفقر والتقشف ، الا أنهم مخادعون فهم لم يتلقوا تعميدا (لم يعمدوا) (٢٤) not having been baptised وعندما أديت صـــلواتى فى اليوم الثانى تظاهرت بأننى شفيت بفعل بركة هـــذا الدرويش (الولى العدنى) • وبعد ذلك كتبت للأميرة ذاكرا لها أنه ببركة الله سبحانه وبركة هـــذا الشيخ الولى (استغفر الله) (٢٥) أصبحت معافى ، وأن الله سبحانه قد عافانى وشفانى ، فاننى أرغب فى التجول فى كل أنحـــاء بلادها • وقد أبديت هذه الرغبـــة لأن السفن كانت فى هـــذا الميناء (عدن) وأنهـــا (أى السفن) لن تبحر قبل شهر • وقد تحدثت سرا مع أحـــد ربابنة السفن مبديا له رغبتى بالسفر للهند مقابل هدايا ثمينة ، فأجاب بالموافقة الا أنها قبل الوصول للهند ستعرج على بلاد فارس ، وقد رضيت بذلك ووافقت •

---

(٢٣) النذر لا يكون الا للرحمان ــ (المترجم) •

(٢٤) يقصد التعميد المسيحى •

(٢٥) اضافة من المترجم •

لحج Lagi احدى مدن بلاد العرب السعيدة وكذلك

عزعز Aiaz وسوقها ، وقلعة دمت Dante

وفى اليوم التالى ركبت قرابة خمسة عشر ميلا فوجدت مدينة يقال لها لحج Lagi (٢٦) وهى موضع مستو ، غاص بالسكان جدا ينمو به أعداد هائلة من النخيل ، والموضع عامر بالمراعى والغلال ، الا أننى لم أجد عنبا هنا ، كما أن أخشاب الوقود (الحطب) نادرة . والسكان هنا غير متمدنين uncivilized فهم أعراب (بدو) غير أثرياء . وقد غادرت لحج وذهبت الى مدينة أخرى تبعد عنها يوما وهى مدينة عزعز Aiaz (٢٧) التى تقع على جبلين بينهما واد ممعن فى الجمال وينبوع ماء رائع ، وفى هذا الوادى يعقد سوق المدينة فيأتيه الناس من كلا الجبلين . ونادرا ما ينعقد السوق دون شجار ونزاع . وسبب ذلك أن سكان الجبل الشمالى يريدون من سكان الجبل الجنوبى أن يعتقدوا كما يعتقدون هم (أى سكان الجبل الشمالى) بأن محمدا رسول الله ، وأن كل صحابته وخلفائه الأربعة من الصالحين ، بينما سكان الجبل الجنوبى يعتقدون أن محمدا رسول الله ، وأن عليا هو الخليفة الحق ، أما الآخرون فمزيفون . ولهذا السبب يقتل بعضهم بعضهم الآخر ، كما يقتل الكلاب بعضهم بعضهم الآخر . دعونا نعد الى السوق الذى يجلب اليه أنواع كثيرة من التوابل وكميات كبيرة من الأقمشة والصوف والحرير ، والفاكهة الممتازة كالخوخ والرمان والسفرجل والتين والبندق nuto والعنب الرائع ويجب أن تعرف أنه يوجد على كل جبل من الجبلين اللذين أشرنا اليهما ـ قلعة حصينة ثم شرعت فى التوجه الى مدينة أخرى تبعد يومين ، وتسمى دمت Dante (٢٨) وهى مدينة حصينة جدا ، تقع على قمة جبل عظيم ويسكنها عرب فقراء جدا ، نظرا لأن المنطقة التى تقع فيها المدينة جدباء قاحلة .

القرانة Almacarana ، احدى مدن بلاد العرب السعيدة ، وحديث عن رخائها .

ولكى نتابع حتى نهاية المطاف رغباتنا بعد أن رأينا لتونا هذه الأمور

---

(٢٦) تقع الى الشمال الغربى من عدن بحوالى ثلاثين ميلا . وكانت وقت رحلة فارتيما تابعة للأمير عبد الوهاب (أشرنا له فى حاشية سابقة) وفى سنة ١٥١٧ أصبحت تابعة لامام صنعاء .

(٢٧) يرجح بادجر انها عزعز ، التى وصفها نيبور باعتبارها قرية تابعة لعدن .

(٢٨) دمت ، شرق رداع .

والمناظر الغريبة ، ارتحلنا الى مدينة أخرى تبعد يومين عن مدينة دمت (٢٩) Dante ، ونعنى بها مدينة المقرانة التى تقع على قمة جبل ، ويستغرق الصعود اليها قطع سبعة أميال عبر ممر لا يسع أكثر من شخصين يسيران متجاورين نظرا لضيق الممر • والبلدة تقع على مستوى قمة الجبل، وهي رائعة الجمال ، وبها طعام يكفي كل سكانها ، وقد بدت لي أقوى مدينة في العالم ، بسبب موقعها ووفرة طعامها ، وليس ثمة نقص في الماء في هذه البلدة ، كما لاينقصها أى مقوم من مقومات الحياة ، وفوق كل هذا ، ففى البلدة خزان ماء يكفى ١٠٠ر٠٠٠ شخص • ويحتفظ السلطان بكل نفائسه (أمواله) هنا لأنها مسقط رأسه وبلدته الأصلية ، لذا فالسلطان يجعل احدى زوجاته دوما في المقرانة •• ويجب أن يعرف أن كل ما يخطر على بالك من بضائع موجود هنا ، وأن أنقى هواء في العالم يمكن أن تتنفسه في هذا المكان • والسكان في غالبهم بيض • ويحتفظ السلطان في هذه البلدة بذهب ينوء بحمله أكثر من مائة جمل ، وما كنت لأقول ذلك لولا أننى رأيته (الذهب) بعينى •

يريم Reame ، احدى مدن بلاد العرب السعيدة
وحديث عن هوائها ، وعادات بعض سكانها

بعد أن جلت في هذه المدينة التى تحدثت عنها في الفصل السابق ، اتخذت سبيلي الى موضع آخر تستغرق الرحلة اليه يوما واحدا وأعنى به مدينة يريم Reame (٣٠) التى يقطن غالب أنحائها سكان سود ، وهم تجار كبار • والمناطق المحيطة بهذه المدينة خصبة جدا الا أن خشب الوقود (الحطب) بها نادر ، وتضم هذه البلدة حوالى ألفى أسرة • وعلى جانبها يوجد جبل تقع عليه قلعة حصينة للغاية ، ويوجد هنا نوع من الخراف تبلغ زنة لية (ذيل) بعضها أربعة وأربعين رطلا ، وقد رأيتها بنفسى ، وليس لهذه الخراف قرون ولا تستطيع المشى لثقل وزنها • ويوجد هنا أيضا نوع من العنب الأبيض لا بذور فيه لم أذق أطيب من طعمه • وقد وجدت هنا أيضا كل أنواع الفاكهة كما ذكرت آنفا ، والمناخ هنا جميل ومتفرد • وقد أجريت حوارا في هذه البلدة مع أشخاص يزيد

---

(٢٩) دمت ، قلعة شرق رداع •

(٣٠) ديمان في ناحية يريم •

عمر الواحد منهم عن مائة عام وخمسة وعشرين عاما (١٢٥ سـنة) ومع هذا فلازالوا بكامل صحتهم •

ويسير الناس هنا أكثر عريا من غيرهم ، وان كان ذوو الأوضاع الحسنة منهم يرتدون قمصانا • والطبقات الدنيا يرتدى أفرادها نصف قطعة قماش يلفونها بالعرض حول نصفهم السفلى ويلبس الرجال فى كل بلاد العرب السعيدة قرونا (ضفائر) من الشعر صنعوها (جدلوها) من شعورهم • أما النسوة فيرتدين سراويل فضفاضة تشبه سراويل البحـارة •

صنعاء ، احدى بلاد العرب السعيدة
وحديث عن قوة ابن الملك وقسوته

وبعد ذلك اتخذت سـبيلى الى صنعاء التى تبعد عن بلدة يسريم Reame (٣١) ثلاثة أيـام • وهى تقع على قمـة جبل عظيـم ، وهى مدينة حصينة للغاية • وقد عسـكر السلطان بخيله ورجـله البالغين ٨٠٠٠٠ رجل ، ثمانية أشهر ، ليستولى عليها ، فلم يستطع دخولهـا عنوة ، وانمـا عن طريق اتفاقيـة استسلام عقـدها مع زعمائهـا by Capitulation وأسـوار صنعاء من الطين ويبلغ ارتفـاعها عشرة برازات braza كمـا يبلغ سـمكها عشرين برازا braza ، بحيث يمـكن لثمانيـة خيول أن تسير جنبا الى جنب فوقها • وفى صنعاء تنمو فواكه متعددة تماما كما فى بلادى (٣٢) كما توجد ينابيع كثيرة • وفى صنعاء سلطان (٣٣) له من الولد اثنا عشر ، أحدهم يسمى محمودا ، وهو شبيه بالمجانين فهو يعض الناس ويقتلهم ثم يأكل لحمهم ميتا حتى يشبع ، ويبلغ طوله أربع برازات ، كما أن ملامحه متناسقة ، ولون بشرته بنى داكن • وينمو فى المناطق المجاورة لصنعاء بعض نباتات البهار • ويوجد بصنعاء حوالى ٤٠٠٠ مسكن ، وهى مساكن جميلة وتشـبه المساكن فى بلادى • ويوجد داخل المدينة أعناب وبساتين ، كتلك الموجودة فى بلادى•

---

(٣١) قلعة ريمان فى ناحية يريم – (المترجم) •

(٣٢) يقصد ايطاليا أو البرتغال – (المترجم) •

(٣٣) يقصد الامام أحمد بن الامام الناصر ، الملقب بالمنصور – (بادجر) •

تعز Taesa وزبيد Zibit
وذمار Damat ، وهي مدن كبيرة جدا
في بلاد العرب السعيدة

بعد أن رأيت صنعاء اتجهت الى مدينة أخرى يقال لها تعز Taesa تبعد عنها ثلاثة أيام ، وتقع على جبل وهي جميلة غاصة بكل ما هو أنيق والأهم من كل ذلك أن بها كميات كبيرة من ماء الورد rose water ويقال انها مدينة عريقة جدا ، فبها معبد مبني على شاكلة سانتا مارتا روتوندا Rotonda في روما ، بالاضافة الى عدد كبير من القصور القديمة . وفي صنعاء تجار في غاية الثراء . وألوان بشرات أهل صنعاء زيتونية . وقد غادرت صنعاء متجها الى زبيد Zibit التي تبعد عنها ثلاثة أيام ، وهي مدينة ضخمة وممتازة للغاية تقع بالقرب من البحر الأحمر اذ تبعد عنه أكثر من نصف يوم . انها موضع يمتد امتدادا كبيرا ازاء البحر الأحمر ، ويتم تمويلها (عن طريق البحر الأحمر) بكميات هائلة من السكر ، وبها فاكهة ممتازة ، وتقع زبيد في واد بين جبلين ، وليس من سور يحيط بها . ويجلب الى زبيد كميات كبيرة من البهارات من كل نوع ، من المناطق والبلاد الأخرى لتتخذ طريقها للتوزيع في المناطق الأخرى . أما عن ألبسة أهل زبيد وألوانهم فلا تختلف عن ألبسة وألوان أهل صنعاء .

وقد غادرت زبيد متوجها الى ذمار Damar التي تبعد عن زبيد بيوم واحد ، ويقطنها تجار في غاية الثراء من المسلمين Moors ، والأرض المحيطة بهذه المدينة خصبة ، ولا يختلف السكان في عاداتهم وأسلوب حياتهم عن سكان زبيد وصنعاء المذكورتين آنفا .

سلطان المدن المذكورة آنفا

كل المدن التي ذكرتها آنفا تابعة لسلطان اليمن "Amanni وهو سلطان بلاد العرب السعيدة الملقب بالشيخ الأمير Sechamir (٣٤) والكلمة شيخ Secho تعني ما تعنيه كلمة قديس Saint في أوروبا ، أما كلمة أمير فتعني «حاكم» أو «سيد» Lord ، وقد أطلق

---

(٣٤) أوردنا شيئا عنه في الحاشية ص ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .

الناس عليه هذه الألقاب لأنه لم يأمر باعدام أى شخص مهما كان الا أثناء الحروب · ويجب أن تعلم أن هذا السلطان كان يسجن ـ على أيامى ـ ١٥٫٠٠٠ أو ١٦٫٠٠٠ كلهم مكبلون فى الحديد ، ينفق على كل واحد منهم يوميـا مبلـغ كاترينين Quattrini 2 ، أى أنه يتركهم ليلاقوا حتوفهم فى السجن · ويمتلك السلطان ١٦٫٠٠٠ عبد ، جميعهم سود ·

القرود وبعض الحيوانات ـ كالأسود ـ المؤذية للانسان

لقد غادرت ذمار واتجهت الى عدن فى خمسـة أيام ، وفى منتصف الطريق وجدت جبـلا مرعبا مخيفا ، رأيت فيه أكثر من ١٠٫٠٠٠ قرد ، يوجد بينها بعض الحيوانات المتوحشة كالأسـود التى تلحق بالبشر أذى كبيرا ، ولايمكن للانسان أن يمر بهذا الطريق الا اذا كان بصحبة جماعة لاتقل عن مائة شخص · لقد مررنا بهذا الطريق على شـفا خطر كبير ، ولم نحاول صيد أى من هذه الحيوانات الا أننا قتلنا عددا كبيرا منها بالسهام والمقاليع حتى نمر سالمين · وبمجرد وصولى الى عدن مكثت فى المسجد متظاهرا بأن المرض قد حـل بى ، وظللت به طوال النهـار وفى المساء رحت أبحث عن ربان السفينة ليجعلنى بين ركاب سـفينة بشكل سرى ·

بعض الأماكن فى القرن الأفريقى

ولأننا قررنا أن نرى مناطق أخـرى ، فقد لجأنا للبحـر لنصل لمقصدنا ، الا أن الحظ (الظروف) تعود أن يملى ارادته المتقلبة على صفحات الماء ، فقد عدنا بعض الشىء ، خارجين بذلك عن خطتنا ، فقبل ذلك كنا قد أبحرنا مدة ستة أيام فى طريقنا لبلاد فارس ، ثم حدث ما جعلنا نعود فى اتجاه أثيوبيـا (السـاحل الغـربى للبحر الأحمر) وعاد معنـا خمس وعشرون سفينة محملة بالفوة Madder (٣٥) (نبات صبغى) لصـبغ الملابس ، ففى كل عام يتم تحميل خمس وعشرين سـفينة بهذا النبات من ميناء عدن · وينمو نبات الفوة هذا فى جنوب الجزيرة

---

(٣٥) يسميه العرب فوه foowwah ولا زال هذا النبات (حتى أيام بادجر) يصدر من عدن وموانىء اليمن الاخرى Badger, footnote, p. 85.

العربية • وبجهد فائق دخلنا ميناء زيلع Zeila وبقينا فيه خمسة أيام لرؤيته ، وكذلك لانتظار المناخ الملائم للابحار •

زيلع المدينة الافريقية ورخاؤها وبعض الحيوانات بها كالاغنام والابقار

زيلع (٣٦) ميناء يعج بالنشاط التجارى خاصة فى الذهب وأسنان الفيلة ويباع هنا أيضا عدد كبير من العبيد ، وهم مسيحيون من أتباع القديس جون (يوحنا) كان المسلمون قد أسروهم فى الحروب ، ويشحن هؤلاء العبيد من هنا الى فارس وجنوب الجزيرة العربية ومكة والقاهرة والهند • ومعيشة الناس فى زيلع رغدة ، وأمور القضاء تجرى على نحو ممتاز • وتنمو الغلال بوفرة هنا وكذلك أعلاف الحيوانات ، ويوجد الزيت هنا بكميات كبيرة ، وهم لايستخلصونه من الزيتون وانما من السمسم (٣٧) Zerzalino كما يتوفر هنا عسل النحل والشمع بكميات كبيرة ، ويوجد هنا نوع من الخراف ، لية الواحد منها تزن خمسة عشر أو ستة عشر رطلا ، ورؤوس هذه الخراف ورقابها سوداء تماما ، بينما بقية أبدانها بيضاء (٣٨) • وتوجد بعض الخراف الأخرى لها ذيول (ليات) فى طول الـ brazzo ، وهى (أى الليات) مجدولة كجذوع أشجار العنب ولكل خروف من هذه الخراف لغد (غبب) يشبه غبب الثور ، وكثيرا ما يلمس الأرض • وقد وجدت فى زيلع نوعا معينا من الأبقار لها قرون كقرون الأيائل وهى متوحشة (٣٩) وقد رأيت هنا

---

(٣٦) زيلع التى عرفها Vincent باعتبارها مدينة موندوس Moondus القديمة تقع فى شمال شرق قارة افريقيا فى مواجهة عدن ، وعلى بعد حوالى ستين ميلا من مضيق باب المندب • Budger, footnote, p. 86.

وقد نقل بادجر استطرادات طويلة عن الادريسى وأبو الفدا وابن بطوطة ، وباحثين غربيين لتحديد موقع زيلع ، وقد أصبح هذا معروفا الآن لذلك اكتفينا بالسطور المذكورة فى هذه الحاشية ــ (المترجم) •

(٣٧) لقد ارهقتنى كلمة Zerzalino ، حتى تذكرت أن فارتيما يستخدم حرف Z بدلا من حرف J ، فتصبح الكلمة Jeljulan جلجلان ، وينطقونها فى الهند Jingli او Jirjili اما بارتى Paretti فقد كتبها Giuggiolana كمقابل لاتيتى لكلمة السمسم Sesame ــ (بادجر) •

(٣٨) ينطبق هذا الوصف بشكل عام على خراف بربرة ، فمن النادر ان تكون بيضاء تماما ، وللواحد منها لغد طويل • أما النوع الآخر فتشبه ليته ذيل الخنزير ــ (بادجر) •

(٣٩) ربما كان فارتيما يقصد المهاة (والجمع مهوات) oryx رغم أنه قدم وصفا للقرون يشبه وصف قرون الظباء (جمع ظبى) antelope ، والواقع أن المهوات كثيرة الوجود داخل البر حول زيلع ، ويتم اصطيادها ، ونادرا ما يصطادونها حية ــ (بادجر) •

أيضا أبقارا أخرى للواحدة منها قرن وحيد فى جبهتها ، يبلغ طوله بالمو ونصف بالمو Palmo ، ويتجه الى ظهر البقرة ، أكثر من اتجاهه نحو الجبهة (٤٠) ولون هذا النوع من الأبقار أحمر بينما الأبقار التى ذكرناها قبل ذلك ذات لون أسود • والمؤن متوفرة بكثرة فى زيلع ، والتجار هنا كثيرون • ولزيلع سور غير قوى ، وميناء سيىء ، ومع ذلك فهو يقع على مستوى البر ، وملك (حاكم) زيلع مسلم ولديه عدد كبير من الجند المشاه والفرسان • وشعب زيلع شعب مقاتل ويلبس أفراده القمصان a shirt وألوانهم كألوان الزيتون ولا يسيرون الا مسلحين بطريقة غير جيدة ، وهم جميعا من المسلمين •

بربرة احدى الجزر الأفريقية ، وشعبها

بمجرد أن أصبح المناخ ملائما ، أبحرنا ووصلنا الى جزيرة بربرة Barbara وحاكمها وكل سكانها من المسلمين (٤١) ، وهى جزيرة

---

(٤٠) وصف دقيق للصوماليين ، سكان بر الصومال وهو مصطلح ينطبق على المنطقة من رأس هافون Hafun على الساحل الشرقى لأفريقيا حتى زيلع غربا • وينقسم السكان وفقا لما يقوله كرتندن Cruttenden الى امتين كبيرتين ترجعان أصولهما الى حضرموت ، وهما فى عداءات وصراعات مريرة لا تنتهى • ومركز هاتين الأسرتين الكبيرتين يقع الى الشرق أو ناحية مهب الريح Windward من جزيرة برنت Burnt واحد هاتين الأسرتين مقسم الى اربع قبائل كبيرة ، وثلاث قبائل أصغر ••• وهم يدعون نسبتهم لأب واحد هو ابن اشميل Darroud ابن عقيل Ishmail ابن عرب Okell الذى أتى Arab من حضرموت وتزوج ابنة من قبيلة Haweea المقيمة فى الساحل الشمال الشرقى لأفريقيا ، وقد أصبح هذا الحضرمى هو المؤسس المسلم للأمة الصومالية فى المناطق الشرقية •••

وثانى هاتين الأمتين الصوماليتين تمتد من جزيرة برنت Burnt أو بندر جديد Jedid الى زيلع وتنقسم الى ثلاث قبائل كبيرة هى : هابر جهاج Haber - Gehajjis وهابر عوال Haber Awwal وهابر الجهلة Haber el Jahlah (هابر تعنى أبناء) وهم ابناء Issakh من ثلاث زوجات ، و Isaak هذا قد قدم الى هنا من حضرموت بعد وقت قليل من تاسيس مواطنه الحضرمى الآخر أمة الى جهة الشرق ، وقد استقر فى بلدة ميت Meyt بالقرب من جزيرة برنت Burnt حيث لا يزال قبره موجودا حتى اليوم • ولما وجد Isaak نفوذه فى ازدياد بسبب زواجه من قبيلة الجالا Galla قام بهجوم مباغت على جارته بربرة وبمعاونة زعيم الجالا المشهور سلطان هرر Harireh ، ونجح فى الاستيلاء على المنطقة حتى زيلع ••• وقد عمر الشيخ Isaakh عمرا مديدا ، كوالديه ، ودفن فى مدينة ميت Meyt ولا زال اسمه يحظى بالاحترام حتى الآن • انظر Transactions of the Bombay Geographical Society, Vol. VIII . (بادجر) •

(٤١) ان المقصود بلا شك هو بربرة ، الا أن بربرة ليست جزيرة كما وهم فارتيما ، =

صغيرة الا أنها طيبة وعامرة بالسكان ، وبها حيوانات من مختلف الأنواع ، والسكان فى غالبهم سود وغالب ثرواتهم من الحيوانات وقد مكثنا هنا يوما واحدا ، ثم اتخذنا سبيلنا الى بلاد فارس ٠

= فهذا الاسم يطلق بشكل عام على خليج صغير inlet عميق وضيق يشكل ميناء آمنا فى موسم الرياح الموسمية الشمالية الشرقية للمناطق المجاورة له ٠ ويقع على بعد حوالى ١٢٠ ميلا الى الجنوب الشرقى من زيلع ٠٠٠٠٠٠ ولأن بربرة كانت ماهولة بالسكان عندما كان فارتيما هناك ، فمن الواضح ان زيارته كانت خلال الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ويتضح هذا من خلال الظروف التى أعادته مرة أخرى للساحل الأفريقى بعد ان ابحر من عدن ، فربما تعرضت سفينته لاحدى هذه النوات (العواصف) الشمالية الغربية التى يسميها العرب بالات Balat والتى تحدث أحيانا خلال هذا الموسم على طول الساحل الشمالى الشرقى لشبه الجزيرة العربية ٠ ورغم أن فارتيما لم يذكر فى رحلته هذه الا قليلا من التواريخ ، الا أنه يمكننا أن نجلى هذا الغموض بالعديد من الملاحظات الواردة فى سياق رحلته ٠ لقد غادر دمشق فى الثامن من ابريل ، ووصل مكة فى ستة أسابيع وبقى فيها عدة أيام على الأقل ٠ ومكث اثنى عشر يوما فى طريقه للمدينة المنورة حيث مكث بضعة أيام قبل أن يذهب الى جدة ٠ ومكث فى جدة اسبوعين ، واستغرقت رحلته الى عدن سبعة عشر يوما ، وفى عدن لبث فى السجن شهرين قبل أن يرسلوه الى رداع Radaa حيث وصلها فى الصيف لأن الموسم كان موسم العنب وتجول فى أنحاء كبيرة من اليمن ، لمدة لا تقل عن ستة أسابيع وهذه الفترة فى مجملها تستغرق ما بين سبعة أشهر وثمانية ، لذا فربما غادر عدن فى حوالى منتصف ديسمبر عندما كانت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية على أشدها ، والسوق فى بربرة مزدهرة ــ (بادجر) ٠